أنا... والبحر!

(مهداة إلى الأستاذ راجي الراعي)

للأستاذ صبحي إبراهيم صالح

« أيها البحر ! أيها الملك الجبار ، المحفوف بالأسرار !

إنني الساعة في تيجك (١) ، أدنى ما أكون إلى عرشك ، بعد أن تجرعت في عبابك ماءك الأجاج ، ولقيت في سبيلك الأهوال من جنودك الأمواج . . .

لقد بلغتك بشق النفس لتقربني نجياً ، فهل أنت طاردي أم ستكون بي حفياً ؟

* * *

تبسم « ملك السواحل » ضاحكاً من قولي ، وكأنما أدركته الشفقة علي ، فأوحى إلى جنوده الأمواج : « أن انطلقوا جميعاً إلى الشاطىء القريب ، ودعوني وحدي مع الفضولي الغريب .. »

حتى إذا شرعت أمواجه تنحسر التفت إلي وقال : « تكلم ولا تخف إنك من الآمنين »

فتنفست ملء رئتي بعد أن احتبست من طول السباحة أنفاسي ، وأنشأت أقول للبحر الأثيج (٢) معجباً بحلمه ، فرحاً بما لقيت من كرمه :

— أتدري يا ملك السواحل أن أرز سجاياك سمة صدرك ، وشدة صبرك ؟

— أجل ... وبسعة صدري وشدة صبري استطعت أن أحتفظ بعرشي حين ثلث العروش ، وأن أصون تاجي يوم حطمت التيجان .

— لقد رأيت عرشك أيها البحر في ثبجك . وما لاح لعيني تاج على لجبك . . .

— وكيف يلوح الآن في الأصيل تاج لا يزين رأسي إلا قبيل الغروب ؟ إن تاجي هالة حمراء من نور الشمس حين تروم المغيب في الأفق البعيد .

١ — ثبج البحر وسطه ومعظمه ٢ — الماء الأجاج الملح المر
٣ — الأثيج العريض الثبج

— أنظرني إذن إلى وقت غيابها ، لعلي أرى هالتها تكلل رأسك الجميل

عنجر (٤) البحر شفتيه ، كأن طلبي الأخير لم يرق لديه ، ثم قال :

— أنظرك ؟ . . كلا . . . حسبك ما يأخذك الآن من سحرها ، وما تحسه من اتقادها ووهجها (٥) فإني أغار عليها من نظرة الإنسان ، ومن ملاطفة الهواء ، ومن نجوى السماء . .

— لله درك من عاشق ولهان ، ولله در الملوك حين يعشقون !

— نعم . . عاشق أنا ومدنف ؛ وإني لأصف معشوقتي بما لا يبلغ وصفه الشعراء . فعلى جبينها الوضاح نور يتألق ، وفي عينيها الزرقاوين شرارة تلتهب ، وبين شفتيها الحمراوين خمرة تفور . أما خدها الأسيل فزنبقة من الخلد ، وأما شعرها الطويل فموج من ذهب ، وأما خصرها النحيل فأرهفته يد الخالق الفنان .

— ياليت شعراءنا يسمعون وصفك الخيالي ليعلموا أن أشعار الملوك ملوك الأشعار . وأنها تنطلق من أعماق القلب هازئة بالقوافي والأوزان .

— إن شعراءكم أيها الناس مغرورون ، وكثير منهم كاذبون . يكتفون بتقطيع البحور ووزنها ، ثم يصورون ما لا تدركه بصائرهم ويتخيلون ما لا حقيقة له في أنفسهم ، ويخدعونكم بزخرف الفاظهم فتقعون له ساجدين .

— ولكن أعذب الشعر أكذبه أيها الملك الشاعر .

— وإن للكذب فنوناً وأساليب ، أيها الفضولي الغريب ، فلقد تتخيل ما تشاء من الأخيلة الكواذب وأنت — مع ذلك — صادق الشعور صدقاً فنياً لا خلقياً . وإن لك أن تكذب ما حلا لك على أن تتلو وحي قلبك ، حين تفنن في كذبك .

— سأقول هذا لشعرائنا المعاصرين ؛ ولكن . . من لقنك هذا أيها البحر العظيم ؟

— ما همني . . . أجل . . الشمس التي تفيض على النور ، فتجعلني مرهف الحس والشعور .

٤ — عنجر شفتيه مدهما وقلبهما توهج ولمعها ٥ — وهج الشمس (بالتحريك)

— الشمس — دائماً الشمس — الست تبصر سواها في الوجود ؟

— ومالي لا أغمض عيني عن سواها وهي ربة النور !

— أنظر إلى السماء ... إنها — هي الأخرى — فاتنة حسناء حين يصفو أديمها ، ويتهلل وجهها ، فتسر الناظرين .

— السماء ؟! أكرهها

— لماذا أيها البحر ؟

— لأن سحابها الثقال تحاول أن تحجب عب [1] شمسي كلما تكاثفت ، ولأن نجومها التياهة ودت لو تعوض لألاء شمسي كلما طلعت ، ولأن قمرها المغرور ينكر الجميل ويحسب أنه ناسخ بنوره ضياء شمسي كلما سطع .

— أنت إذن تكره الظلام ؟

— ومن لا يكرهه في الوجود ؟ إن الظلام معلم النفاق الأول

— وكيف ذلك ؟ .

— إنه ستار صفيق ، وحجاب ثقيل . إن المجرم ليتوارى في جنح الظلام فلا تدركه الأبصار ؛ وإن ذا الوجهين لرابحة تجارته إذا عسكر [2] الليل البهيم .

— بيد أن الحقائق لا تخفى طويلا .

— لأن النور هو الذي يزيل خفاءها ، ولو بقيت في الظلام اظل الناس جهلاء لا ينعمون بحقيقة ، بلهاً لا يطلعون على سر .

— أرجو أيها البحر أن يكون في قلبك من الصراحة كفاء حبك لها وثنائك عليها .

— إن لي منها مقداراً عظيما. الست تراني جارحاً والصراحة جارحة ؟ أولست تراني عاريا والصراحة عارية !

— أنت ؟ أنت أيها الملك عار ؟ وأين إذن أبهة الملك وزينة السلطان؟ أأنت أيها الجالس على عرشك عار وإن الخدم بين يديك يلبسونك ما تشاء ، وينتقون لك من الأزياء والألوان ما تريد ، فهي تارة زرق صافية بلون السماء في اليوم الصائف ، وهي تارة عكرة شواحب كلون السحاب حين يهدودر المطر، وهي أحياناً بيض نواصع من أثر الجليد في صنابر الشتاء [4] ؟ ...

— ها ها ... اهذه أزياء وألوان ، في نظرك أيها الانسان؟

٢ = عب الشمس (بالتعديد والتخفيف ضوءها

٢ ـ عسكر الليل ترا كبت ظلمته ٣ ـ يهدودر المطر ينصب وينهمر

إنني — بالرغم منها جميعاً — عار لا يستر لباس . إنها تعلن صراحتي وتفضح ما ينفسي ، فكلما بدت مياهي زرقاً صافيات كنت ناعم البال رخي القلب ، وكلما بدت عكرة شواحب كنت شتيت الخواطر قلق النفس ، وكلما بدت بيضاً نواصع كنت جامد المشاعر خامد الإحساس . وما استطيع — وفي حالة من هذه الحالات — أن أكتم تأثري وانفعالي ، وتلك — لعمري — مزايا الصريح .

— ما أبرعك في الدفاع عن نفسك ! ولكن ... قل لي أيها الملك العاشق الشاعر الخطيب : متى ترضى ومتى تغضب ؟

— أرضى إذا رضي أصحابي ، وأغضب حين يغضبون .

— ما أوفاك ! ... ومن أصحابك ؟

— كل صريح لا يداور ، مخلص لا ينافق .

— ومن أعداؤك ؟

— الد اعدائي الانواء والرياح ،فإنها تخرج أثقالي ، وتقطع اوصالي ، وتجعل بعضي يموج في بعض .

— والحرب ؟

— ويل لي من الحرب ؟ أنها تساعد الأنواء والرياح نكايتي واستفزازي، ولاسيما حروبكم الأخيرة التي مزقت أيها الناس لفائف قلبي وقطعت أمعائي ، وعملتني أن أكون كالغراب، آكل لحوم الأموات الخمزة [5] وأواريها في أحشائي

— ولكنك أيها البحر الجروز [6] تأكل لحوم الأموات حتى في غير الحروب .

— هذا كذب وزور .

— كيف وأنت في السلم تلتهم في جوفك الآب فتختلف أبناءه يتامى ، وتبتلع في بطنك الحبيب فتفصله عن حبيبته،وتدفن في أحشائك الوحيد فتثكل بفقده أمه ؟ إنك قاس أيها البحر مهما أظهرت اللين فاجتذبت القلوب ، شرس ولو مثلت الوداعة فأجدت التمثيل .

— ماذا تقول ؟

— أقول إنك تتظاهر بكراهية النفاق وأنت غريق فيه

٤ ـ صنابر الشتاء : شعة برودة ٥ ـ اللحوم المخمزة (بكسر النون وفتحها) المنتنة القذرة ٦ ـ الجروز الأكول أو العريم الأكل

كواعظ ينهى عن الخلق الذميم وهو يأتيه ، وأقول انك تلبس مسوح الرهبان ، ينقض على فريستك إنقضاض الثعبان .

— لقد أكثرت القول ياهذا وأنا صبور .

— وأقول إنك كناسة الغرب تصافح بيد من حرير . وأنت تبيت الغدر ، وتضمر أشد المكر ... اما كان خليقاً بك أن ترحم الملاحين الذين يمخرون عبابك ، والرحالين الذين يضربون فى مائك ، والمسافرين الذين ينزلون ضيوفاً عليك ، والسابحين الذين يغوصون فى قاعك ؟ أما كان جديراً بك أن تأخذ بأيديهم إلى الشاطىء بدلا من أن تغيبهم فى أعماقك ، أو تهشمهم على صخورك ، أو تلقى جثثهم عند أقدام جزرك ، أو تحبسهم فى مضيق خلجانك أو تجعل بقاياهم طعاماً لحيتانك ؟ !

— أيها الفضولى المتفلسف ! إنك تجهل حقائق الأمور . ما ينبغى لى أن أغرق أحداً وما أستطيع . إن أعدائى الرياح والأنواء تأبى إلا أن تزيد فى نكايتى واستفزازى فتثور فى وجوه أحبابى ، وتهوى بهم فى مكان سحيق .

— ربما اقتنعت بكلامك لو وقفتنى على سر هذه الطموم التى تعدها لنا معشر الناس .

— الطموم ؟ أية طموم تعنى ؟

— أعنى طمومك .. أعنى اللحوم الطرية التى تجول فى صدرك ، بل الحلى الجميلة التى تتدلى على تحرك ... أعنى الأسماك التى ترغب فى اصطيادها ، واللآلىء التى تولع باقتنائها ... أو ماتكفى هذه وتلك لتكون طموما لنا معشر الناس ؟

— وما ذنبى إذا جئتم تغتصبون حيتانى فأغرقتكم فى عبابى ، أو أقبلتم تسرقون مرجانى فأوصد عليكم بابى ؟ إن طمعكم يوردكم المهالك أيها الناس .

— ولكنك أحياناً تعدو علينا من غير أن نأكل حيتانك ، أو نسلب لؤلؤك أو مرجانك .

— ومتى عدوت عليكم ؟

— كلما جن جنونك ، وثارت ثورتك ، فرحت فيضانك تدمر المدن الوادعة ، وتدمدم على الدور الآمنة .

— لى باقناعكم أن ليس هذا بعدوان متى أيها الناس من لى باقناعكم أن العدوان لا يقوى عليه إلا ذو مرة وجبروت وأن ليس لى من القوة ما تزعمون ؟ انما فيضانى بكاء المهزوم المتراجع . إن عيونى لا تفيض إلا إلى حين تقتصر على الأنواء العاتية والرياح الفاشمة . وأنتم أيها الساكبين ضحايا دمعى المسكوب ، فوا رحمتاه للضعيف المغلوب .

— كفى ... كفى أيها البحر ! ما برحت عند ظنى بك ، فانك على قوتك تظهر الضعف ، وعلى قسوتك تزعم اللين ، وعلى نفاقك تدعى الإخلاص ، وتريدنا معاشر الناس أن نؤمن بدعاويك ونتخدع بزخرف ألفاظك .

ولم يدعنى البحر أتم كلامى ، فلقد تقبضت صفحة وجهه فقام على عرشه وقعد ، ثم أرغى وأزبد ، وأنذر وتوعد ، ثم حشر جنوده الأمواج وناداها ، فأسرعن عاديات إليه من الشاطىء القريب ، وأيقنت أنى سعيت إلى حتفى بظلفى ، فاستسلمت للاقدار وطفقت أسبح تارة على ظهرى وتارة على جنبى ، وأخبط طوراً بيدى وطوراً برجلى ، وأريد أن أستغيث فلا تنطلق الاستغاثة من حلقى ، ثم قبض الله لى الريح عدوة البحر فعاردت قلول الأمواج إلى ناحية وأنشأت تدفعنى بكلتا يديها إلى ناحية ، حتى قاربت الشاطىء خائر القوى لاهث الأنفاس ، فتلقانى بعض السابحين وأنقذنى وسرنى ثم أبلغنى مأمنى .

ولما خرجت قدماى من المياه سمعت صوت البحر الأجش يجلجل فى الفضاء ، شامتاً بما نالنى من عناء : فاذا هو يقول وإن الأثير يردد صداه . « لقد عدت أيها الانسان إلى الشاطىء كما جئت إلى عرشى فى موج كالجبال ، وإنه لجدير بمن ظهر على أسرار الملوك أن يلقى الشدائد والأهوال ! »

فلما نجوت إلى البر صحت بالبحر بأعلى صوتى :

« أيها الملك الجبار ، المخوف بالأسرار ! لقد أصبحت الآن على رمل ساحلك ، أبعد ما أكون عن عرشك ، بعد أن عبيت كرة أخرى ماءك الأجاج . ولقيت الأهوال من جنودك الأمواج !

كلا . . لن أحاول أن تقربنى نجياً ؛ ولن أسألك أن تكون بى حفياً ! . . »

(طرابلس الشام) صبحى ابراهيم صالح